

فقه السياسة في رسالة النبي إبراهيم (ع)



الواقع الاجتماعي من خلال القرآن الكريم:

يمكننا متابعة الواقع الاجتماعي لرسالة إبراهيم في القرآن الكريم من خلال الوقفات الآتية:

1- كانت الإمامة أكبر الابتلاءات لإبراهيم (ع)؛ وهي تكليف لا تشریف: (وَإِذْ ابْتَلَايَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...) (البقرة/ 124).

2- أساس الإمامة وسبيل الوصول إليها ليس النسب، وإنَّما العدل: (.. قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْذَالُ عَهْدِي الطَّالِمِينَ) (البقرة/ 124).

3- توحيد التَّوَجُّهُ والهدف مُهمٌّ جدًّا في البناء الجماعي والإيماني: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَحَابَّةً لِّلنَّاسِ وَآمَنًا... (البقرة/ 125).

ومُجاهد: أنَّهُ لا ينصرف عنه أحد إلا وهو يتمنَّى العود إليه، قال ﷻ تعالى: (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) (إبراهيم/ 37)، وقيل مثابة؛ أي يحجُّون إليه، فيُثابون عليه.

4- دعوة إبراهيم (ع) كانت خالصة في طلب الأمن ورزق الناس من الطيبات؛ فهي دعوة واقعية تلبِّي

الإحتياجات المُجتمعية للمُسلم وغيره: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (البقرة / 126).

5- أهمية المكان في الدعوة كانت بادية في رفع الفواعد من البيت، وذلك من قبل إبراهيم وإسماعيل (ع): (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ...) (البقرة / 127).

6- كان هدف إبراهيم وإسماعيل بناء الذُّرية المكوَّنة للأُمَّة المُسلمة: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ...) (البقرة / 128).

7- إستمرار الرِّسالات ضرورة من ضرورات الوجود البشري: (رَبِّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ...) (البقرة / 129).

8- السُّفهاء وأهل الجهل هم الرِّسّاغبون عن مِلَّة إمام الحُنفاء إبراهيم (ع): (وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ...) (البقرة / 130).

9- الأنبياء والمرسلون أعلى الناس عقلاً وحكمة، وتجلّى ذلك في مُحاجة إبراهيم (ع) للذُّمُود.

10- كان إنتماء إبراهيم (ع) إسلامياً خالصاً، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً، فهذه مناهج اعتراضها التَّحريف والتبديل، فكانت الحاجة ماسّة للرُّجوع إلى عهد التوحيد الخالص، فكانت دعوة إمام المُرسلين سيِّدنا محمد (ص)، وفي ذلك قوله تعالى: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا...) (آل عمران / 67).

11- لم تمنع العلاقة الإجتماعية بين إبراهيم وأبيه - والتي حافظ عليها إبراهيم (ع) غاية المُحافظة حتى النهاية - لم تمنعه من الجدِّ بدعوة الله - تعالى - وعدم المُجاملة على ثوابت الدِّين: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرْزَا أَتَتَّخِذُكُمْ آلِهَةً إِنِّي أَرَى إِتْرَافَكَ وَقَومَكَ فِي الضَّلَالِ مُبِينٍ) (الأنعام / 74)، أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: (آزر الصنم، وأبو إبراهيم اسمه يازر، وأُمُّه اسمها سارة، وسريته أُمُّ إسماعيل اسمها هاجر).

12- كانت ظاهرة الوصول إلى اليقين عن طريق آيات الكون واضحة وبادية في حوار إبراهيم (ع) مع الكواكب: (فَلَمَّا سَا جَنَّ عِلْيَهُ لَوْلَآ رَبِّي فَأَعْبَاهُ رَبِّي قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا سَا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا سَا رَبِّي الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا سَا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا سَا رَبِّي الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا سَا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِّيَكُمْ مِمَّا تَشْرِكُونَ) (الأنعام / 76-78).

13- ربُّنا ما يُضطرُّ الدُّعاة إلى الله تعالى - وعلى رأسهم الرُّسُل - للهجرة والانتقال إلى مكان

يُؤَسِّسُونَ فِيهِ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ، فَيَكُونُ الْوَطَنُ الْجَدِيدُ الَّذِي يَحْمِي الدَّعْوَةَ: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (إبراهيم/ 37).

14- الثابت على الحقِّ يُمثِّلُ أُمَّةً، فلا عبرة بكثرة الهالكين: (إِنِّي إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتِلًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (النحل/ 120).

15- إعتزال الباطل مفتاح الخير؛ وهو شخصي إن لم يكن مُجتمعيًّا: (فَلَا مَسَّ اعْتَرَلََّهُمْ وَمَا يَعْزُبُ عَنْهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَوْ كَانُوا عِنْدَ مَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَفَهُ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) (مريم/ 49).

16- لم يكن شاغلُ الرُّسُلِ الاجتماعي داعيًّا لتفريطهم بلبنة البناء الاجتماعي؛ وهو الأسرة: (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) (مريم/ 55).

17- المواجهة بين الحقِّ والباطل لا بُدَّ منها، وذلك بعد أن يعجز الباطل عن إقامة الحُجَّةِ على الحقِّ، ظهر ذلك جليًّا في سورة الأنبياء: (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلِهِ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمُ الْوَاقِعُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنْ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّاهُمْ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ هَذَا الَّذِي كَذَّبْتَ وَآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا يَنْدُطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَيَّ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْدُطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا لَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * فَلَمَّا يَأْتِ النَّارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا

18- قال الإمام محمد بن الحسن الشَّيباني صاحب أبي حنيفة رحمها الله تعالى: ولا (بأس أن يحمل الرجل وحده على المُشركين، وإن كان غالب رأيه أنَّهُ يُقتل، إذا كان في غالب رأيه أنَّهُ يُنكَّر في فهم بقتل أو جرح أو هزيمة، وإن كان غالب رأيه أنَّهُ لا يُنكَّر في فهم أصلاً لا بقتل ولا بجرح ولا بهزيمة ويُقتل هو، فإنَّه في هذه الحالة لا يُباح له أن يحمل وحده على العدو).

19- أذان الحج مؤتمر جامع إلى اليوم، ولأهل الصدق آذان تسمعهم: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتُوا تَبِيعَاتٍ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) (الحج/ 27).

20- توجَّه الأُمَّة إلى الله تعالى - في أن مطعمها ومُشفيها ومُحييها ومُميتها هو الله عاصم لها من الإرتقاء في أحضان الأراذل: (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ إِلَهِي وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي ذُكُمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْ لِي مِنْ وَرَثَةٍ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاعْفُ عَنِّي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُدْعَوْنَ) (الشعراء / 78-87).

- فقه السِّياسة ومعالم الدَّعوة في رسالة إبراهيم (ع):

بَعْدَ أَنْ تَوَقَّفْنَا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى - وَهُوَ يُؤَرِّخُ لِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ (ع) بِمَرَاتِلِهَا كَافَّةً - فَإِنَّا نَحْدِّدُ - هُنَا - مَعَالِمَ فَهْمِ السِّيَاسَةِ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَكَمَا يَأْتِي:

- 1- لا يمكن أن تنطلق مسيرة من دون إمام، أو قائد، أو مُرشد.
- 2- العدل أساس الملك، والظُّلم بداية الإنكفاء، أمَّا النَّسَبُ، فلا موقع له في دعوة إبراهيم (ع).
- 3- لم يكن توجُّه الناس واضحاً من حيث المكان في دعوة نُوح (ع)، بينما كان واضحاً جليلاً في دعوة إبراهيم (ع) بالتوجُّه إلى المثابة؛ وهو البيت العتيق.
- 4- كُتِلَ منهج لا يحلُّ المشكلة الإجتماعية للناس، ولا يتبنَّى أهل الحاجات، فهو منهج فلسفي وخيالي، لذلك كان المنهج الإبراهيمي واقعياً في طرح مشكلة يطلب لها الحلَّ، وهو إفتقار الوادي غير ذي الزَّرْع إلى الرِّزْق والمعيش، وهذا الإفتقار يُؤلِّد الحاجة وفقد الأمان، فأكثر ما ينشأ الإجرام، وتُعشِّش السَّرقات في العوالم المُحتاجة واليائسة، لذلك التجأ إبراهيم (ع) إلى الله تعالى - في حلِّ هذه المشكلة، وكان الحلُّ.
- 5- كان هدف إبراهيم (ع) بناء الأُمَّة المُسلمة عن طريق الذُّرية المُسلمة، وهذا يُمثِّل إنتقاله كبيرة في سلسلة الرِّسالات.

6- كانت الرِّسالة الإبراهيمية تكاملية بكلِّ ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، فهي تدعو إلى

استمرار سلسلة الرسائل في الدور المتعاقبة، باعتبار أن البلاغ مسؤوليّة الجميع، وقد خصّ الدُّعاء ببعث الرسول الكريم مُحَمَّد (ص) بوصفه مُتميِّزاً بختم الرِّسالة.

7- الأسرة هي أساس البناء الرّسّين لإعداد الأُمّة، وقد ظهر واضحاً الإشكال الكبير الذي ولّده انتقال ابن نُوح (ع) إلى مُعسكر الخصوم، ممّا جعل إبراهيم (ع) يركّز تركيزاً كبيراً على تكوين الأسرة المُسلمة، وقد ظهر ذلك جليّاً في دعوته لأبيه بالحُسنى، ودُعائه ﷻ - تعالى - بالذُّرِّيّة المُسلمة.

- المُقارنة مع فقه السِّياسة الإسلاميّة:

عندما نُدقّقُ في الفقه السِّياسي لإبراهيم (ع)، ونُقارنه بالفقه السِّياسي الإسلامي، نجد كثيراً من المُشتركات من حيثُ البداية والخاتمة، ويمكننا عندما نُقارن بينهما تحديد النقاط الآتية:

1- كانت الإمامة في الفقه السِّياسي الإسلامي مُرتبطة بوجود دولة، ودُستور، ونُظام ومُؤسّسات، بينما كانت الإمامة في الفقه السِّياسي لإبراهيم (ع) حركة تربويّة إيمانيّة.

2- جَمَعَ الفقه السِّياسي الإسلامي بين العدل المُؤهِّل للإمامة وبين العُصبة التي تحميه (الأئمّة من قُريش)، كما أنّ الدعوة الإسلاميّة قد وطّفت النّظام القبلي الذي ينصّ على شرعيّة الحماية، وذلك لصالح حماية الدُّعاء، وعلى رأسهم الرّسول الكريم، بينما كان النّظام القبلي في رسالة إبراهيم (ع) خصماً عنيداً للرِّسالة، مُمثّلاً بأبيه، نتج عنه - في النّهاية - هجرة إبراهيم (ع) من العراق، وهكذا يجمع الإسلام بين ما يتصوّرهُ الكثيرون مُتناقضاً.

3- لقد كان في توحيد التّوجّه والقبلة في رسالة إبراهيم (ع) بداية طيّبة ومُباركة، غير أنّ الإسلام أضاف إليها نظاماً عباديّاً دقيقاً يُحقّق الهدف والمقصد معاً.

4- إذا كان الفقه السِّياسي لإبراهيم (ع) دَفَعَهُ إلى تحقيق الأمن الاجتماعي والكفالة المُجمعيّة عن طريق الدُّعاء، فإنّ الفقه السِّياسي الإسلامي جعل الإستجابة للحاجة المُجمعيّة أساساً يتعبّد المُسلم به، وهو عمَلٌ رُبّما يتجاوز في الأمر ثواب الصّائم القائم.

5- كانت الهجرة عملاً عملاقاً لإبراهيم (ع) في تكوين الذُّرِّيّة والأُمّة المُسلمة، إلّا أنّ الهجرة المُحمّدية كانت ترمي إلى هدف أعمق وأكبر؛ وهو العودة إلى مكان الهجرة، وضمّه إلى الدّولة الإسلاميّة، بينما لم يكن ذلك حاصلًا في هجرة إبراهيم (ع)، وقد تمثّل ذلك في الصّراع الذي حصل آنذاك على أرض العراق.

6- اعتزل إبراهيم (ع) المجتمع المُشرّك، بينما كان النبي الكريم يُصلّي في الكعبة في العهد المكيّ، وفيها ثلاثمائة وستون صنماً، وفرق بين الإعتزال وبين مُهاجمة الباطل بالحُجّة المُفضية إلى إعتزاله معنويّاً وحسّياً، وقد ظهر الفارق واضحاً، فمع أنّ ما تمثّل له الصّنميّة من خطرٍ على الرّسالتين، إلّا أنّ الرسالة الأولى سلكت طريق التّهديم باليد، بينما سلكت الرّسالة الخاتمة طريق التّدريج بالمنهج المرحلي.

كان مفهوم التّجمُّع في رسالة إبراهيم (ع) مبنياً على الحقِّ المحض، بينما كان الفقه الإسلامي السِّيَاسي يرمي إلى التعامل مع الآخرين على وفق سياسة المراحل والدّرجات، فمنهم مَنْ يتمُّ التعامل معه على أساس الحقِّ المحض، وهم الذُّخْدُ؛ ومنهم مَنْ يبحث معه عن المُشترَكَات، وهذا غير مُستغرَب على رسالة جاءت لتحقيق أمل المُجتمع، وتأسيس دولة، ونُظُم متكاملة، بينما كانت رسالة إبراهيم (ع) رسالة مرحلة اقتضتها مُستحقّات التّأسيس والبناء.

المصدر: كتاب الفقه السياسي الإسلامي